بسم الله الرحمن الرحيم

٣٨ - سورة صٓ

مكية . وقيل : مدنية وضُعِّفَ وآياتها ثمان وثمانون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (صٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ)

« صٓ » بالسكون على الوقف . وقرئ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا فيه وفى نظائره . لما قدمنا غير ما مرة . وقيل : قَسَم رمزىّ ، وإليه نحا المهايمىّ. قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذى اعترف به الكل فى غير دعوى النبوة، حتى صدقه أهل الكتابين فى إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق فى دعوى النبوّة . أو بصفائه عن رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب . أو بصعوده فى مدارج الكمالات ، الدال على صعوده فى مدارج القرب من الله ـ أو بصبره الكامل الذى هو لوازم الرسالة على أنه رسوله . انتهى .

«وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ» أى الشرف الدال على حقيقته وصدقه. أو التذكير، كآية(١) (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) والجواب محذوف لدلالة السياق عليه . أى إنه لحق. وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ » أى كبر « وَشِقَاقٍ » أى عداوة للحق والإذعان له. إضراب عما قبله . كأنه قيل : لا ريب فيه قطعا . وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريبٍ مّا فيه . بل هم فى حمّية جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله. ولذلك لايذعنون له. وقيل: الجواب مادل عليه الجملة الإضرابية. أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه. بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

« كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ » أى لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهله « فَنَادَواْ » أى فدعوا واستغاثوا « وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى وليس الحين حينَ فرار ومهرب ومنجاة . والكلام على (لات) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط فى مطولات العربية ، وفى معظم التفاسير هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ، وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ)

[٥] (أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ)

« وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ » أى رسول « مِّنْهُمْ » أى من أنفسهم . يعنى النبىّ ﷺ « وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ » أى بليغ فى العجب . وذلك لتمكن تقليد آبائهم فى نفوسهم ، ورسوخه فى أعماق قلوبهم . ومضىّ قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ، وغشى على أبصارهم ، ونسى باب النظر والاستدلال . بل محى بالكلية من بينهم . وصار عندهم من أبطل الباطل وأمحل المحال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ)

« وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى الأشراف من قريش يحضّون بعضهم على التمسك بالوثنية،

ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين « أَنِ ٱمْشُواْ » أى فى طريق آبائكم « وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ » أى عبادتها مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا « إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ » تعليل للأمر بالصبر . أى يراد منا إمضاؤه وتنفيذه لامحالة . أى يريده محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لاقول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد منا . أى بنا . فلا انفكاك لنا عنه . وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٧] (مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ)

« مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ » أى ماسمعنا بهذا التوحيد الذى ندعى إليه فى ملة النصارى . لأنهم مثلثة غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا « إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ » أى ماهذا التوحيد إلا فرية محضة ، لامستند له سوى هذا الذكر بزعمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ، بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ)

« أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا » أى مع أن فينا من هو أثرى وأعلى رياسة . قال الزمخشرىّ : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا[1] (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد ، على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم « بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى » إضراب عن مقدّر . أى : إنكارهم للذكر ليس عن علم ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

بل هم فى شك منه . يقولون فى أنفسهم : إمّا وإمّا « بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ » أى على الإنكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد ، وصدّقوا . وتصديقهم لاينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ويؤخذ منه أن (لما) لائقة بالجواب . وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده . كما يقول سيبويه . وفرق بينها وبين (لم) بأن (لم) نفىٌ لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته (قد) . و (لما) نفى لما يتوقع وجوده أُدخل على مثبته (قد) .

وقال : وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى قوله عليه الصلاة والسلام : الشفعة فيما لم يقسم . فإنى استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . فقيل لى : إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة . فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلتُ ذلك بأن آلة النفى المذكورة (لم) ومقتضاها ، قبول المحل الفعل المنفىّ وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم . ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركيكاً من القول ، لإفهامه قبوله للكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ)

« أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ » أى حتى يتخيروا للنبوة ما تهوى أنفسهم . كلا [١] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ) [٢] (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُو) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ)

« أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ » أى فليصعدوا

(١) [٢٨ / القصص / ٦٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

فى المراقى التى توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا فى الأمور الربانية والتدابير الإلٰهية ، إن قدروا .

روى ابن جرير[1] بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر وأشدّ من الحديد . وهو بكل مكان . غير أنه لا يرى . انتهى .

وهذا البيان ينطبق على ما يعرّف به الأثير الموجود فى أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة. فتأمل .

ثم قال ابن جرير[1] : وأصل السبب عند العرب، كل ماتسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة ، أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة ، وغير ذلك . انتهى .

وقال المهايمىّ : أى فليصعدوا فى الأسباب التى هى معارج الوصول إلى العرش ، ليستووا عليه ، فيدبروا العالم وينزلوا الوحى على من شاءوا . وأنّى لهم ذلك ؟؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ)

« جُندٌ مَّا » أى هم جند حقير « هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ » أى الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك. وأولئك قد قهروا وأهلكوا. وكذا هؤلاء. فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون . و (هُنَالِكَ) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ، أنه سيهزم جندا من المشركين . فجاء تأويلها يوم بدر. وقال ابن كثير: هذه الآية كقوله جلت عظمته[2] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ *سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ) وكان ذلك يوم بدر . وفى الآية أوجه من الإعراب أشار لها السمين

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٤و٤٥] .

بقوله : (جُندٌ) يجوز فيه وجهان : أحدهما ـ وهو الظاهر ـ أنه خبر مبتدأ . أى هم جند . و (ما) فيها وجهان ، أحدهما ـ أنها مزيدة . والثانى أنها صفة لـ(جند) على سبيل التعظيم، للهزء بهم، أو للتحقير . فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لهذين المعنيين. و (هُنَالِكَ) يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن يكون خبراً (جند) و (ما) مزيدة و (مَهْزُومٌ) نعت (جند). الثانى ـ أن يكون صفة (جند) الثالث ـ أن يكون منصوبا بـ(مهزوم) . و (مَهْزُومٌ) يجوز فيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ أنه خبر ثان لذلك المبتدأ المقدر ، والثانى أنه صفة (جند) . و(هُنَالِكَ) مشارٌ به إلى موضع التقاول والمحاورة بالكلمات السابقة ، وهو مكة . أى سيهزمون بمكة . وهو إخبار بالغيب . وقيل: مشارٌ به إلى نصرة الإسلام . وقيل: إلى حفر الخندق ، يعنى إلى مكان ذلك . الثانى من الوجهين الأولين أن يكون (جند) مبتدأ و (ما) مزيدة و (هُنَالِكَ) نعت و (مَهْزُومٌ) خبره . وفيه بعد ، لتفلّته عن الكلام الذى قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس فى هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل . فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيته ! فبعث إليه . فجاء النبىّ ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل . قال فخشى أبو جهل لعنه الله ، إن جلس إلى جنب أبى طالب ، أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس فى ذلك المجلس. ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه. فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب :أى ابن أخى !مابال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول. قال، وأكثروا عليه من القول . وتكلم رسول الله ﷺ فقال : ياعم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها . تدين لهم بها العرب . وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . ففزعوا لكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشرا . فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ : لا إله إلا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون :

(أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ) ونزلت الآية . رواه ابن جرير[1] والإمام أحمد والنسائىّ ، والترمذىّ وحسّنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ » أى الملك الثابت . وأصله البيت المطنّب ، أى المربوطة أطنابه ـ أى حباله ـ بأوتاده . استعير للملك استعارة تصريحية . وصف به فرعون مبالغة بجعله عين ملكه . أوشبه فرعون فى ثبات ملكه بذى بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده. على طريق الاستعارة المكنية . وأثبت له ما هو من خواصه تخييلا ، وهو قوله (ذُو ٱلْأَوْتَادِ) فإنه لازم له . أو هو كناية. حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت. وقد جاء هذا فى قول الأسود[2] من شعراء الجاهلية :

ولقد غَنُوا فيها بأنعمِ عيشةٍ فى ظل مُلْكٍ ثابتِ الْأَوْتَادِ

أو المعنى: ذو الجموع الكثيرة. سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضا ، كالوتد يشد البناء . فالاستعارة تصريحية فى الأوتاد . أوهو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند. أوهو على حقيقته والمراد المبانى العظيمة والهياكل الثابتة الفخيمة . واللفظ صادق فى الكل .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) البيت رقم ١٢ من المفضلية رقم ٤٤ لصاحبها الأسود بن يعفر النهشلىّ . وأول القصيدة:

نام الخلىُّ وما أُحسّ رقادِى والهمُّ محتضِرٌ لدىَّ وِسَادِى

غنوا : أقاموا .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣] (وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ، أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ)

«وَثَمُودُ» وهم قوم صالح «وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ» أى الغيضة، وهم قوم شعيب «أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ» أى الكفار المتحزبون على رسلهم، الذين جعل الجند المهزوم منهم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٤] (إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

«إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ» أى فوجبت عليهم عقوبتى. قال الشهاب: (إِن) نافية و (كُلٌّ) محذوف الخبر. والتفريغ من أعمّ العام. أى ما كل أحد مخبر عنه بشىء، إلا مخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل. لأن الرسل يصدق كلٌّ منهم الكل. فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل. أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع. فيكون كل كذب رسوله. أو الحصر مبالغة. كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه، بمنزلة العدم. فهم غالون فيه. انتهى.

وقال الزمخشرىّ: وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا، وبالاستثنائية ثانيا، وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص ـ أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه.

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير. وهى أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين، ثم أريد ذكر ماحاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليلىَ قوله تعالى (فَحَقَّ عِقَابِ) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام. وهو كما قدمته فى قوله[1] (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله [1] (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ). انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥] (وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ)

«وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ» أى أهل مكة «إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً» أى أخذة واحدة بعذاب

(١) [٢٢/ الحج/ ٤٤].

بئيس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا . كما قال :

صاح الزمانُ بآل برمكَ صيحةً خرّوا لشدّتِها على الأذقانِ

وأصله من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم « مَّالَهَا مِن فَوَاقٍ » أى من توقفٍ مقدار فواق . وهو مابين الحلبتين . أورجوع وترداد. فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع فـ (فواق) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر الملزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم . وهما لغتان. وقيل: المفتوح اسم مصدر من (أفاق المريض) إفاقة وفاقة، إذا رجع إلى الصحة. والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ)

« وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته . كقوله[١] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ) « قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ » أى الجزاء . وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية . كما قص عنهم نظائره فى عدة آيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد ، كما أوتى داود عليه السلام، مما سارت به الأمثال[٢] ولذا قال تعالى «وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ »

(١) [٢٢ / الحج / ٤٧] و [٢٩ / العنكبوت / ٥٣و٥٤] .

(٢) ماذكرناه هنا من وجه الارتباط بين نبأ داود وما قبله من الوعد بإيتائه ما أوتى ، هو مايظهر من السياق ويشعر به نظائره فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

وما ذكره الزمخشرىّ وتابعه عليه البيضاوىّ وغيرهما فى وجه الاتصال ، فما تقشعر من ذكره الأبدان. ولا علاقة له فى الوصلة ولا المناسبة أصلاً. فخذ ماأوتيت وكن من الشاكرين لله رب العالمين . انتهى مؤلفه .

أى : القوة . أى : الاجتهاد فى أداء الأمانة والتشدد فى القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن « إِنَّهُۥ أَوَّابٌ » أى رجّاع إليه تعالى بالإنابة والخشية والعبادة والصيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ)

[١٩] (وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ » أى تبعاً لتسبيحه « بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً » أى مجموعة عنده يسبحن معه « كُلٌّ لَّهُۥٓ » أى لله تعالى « أَوَّابٌ » أى مطيع منقاد . يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه .

قال ابن كثير : أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل[1] (يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه ، إذا مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أى بأن خلق فيها حياةً ونطقاً . أو كان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دوىّ فى الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع . وقد عهد من الطير القمرىّ أنه ينتظر سكتة المصوّت والقارئ بصوت حسن أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ)

« وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ » أى قويناه بوفرة العدد والعُدد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر « وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ » أى النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠] .

والحضّ على الآداب ومكارم الأخلاق . وكان زبوره عليه السلام ، كله حكما غررا « وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ » أى فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ، ورفع الشبه ، وإقامة الدلائل . وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ، ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب . ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل ، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك ، ما قصه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ)

« وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ » أى ولجوه . و (المحراب) مقدم كل بيت وأشرفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ، فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ)

« إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ » أى منا . فلسنا فاتكين وإنما نحن « خَصْمَانِ » أى شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك « بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ » أى تعدى « فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ » أى بما يطابق أمر الله « وَلَا تُشْطِطْ » أى ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه « وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ » أى بحيث لا تميل عن الحق أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ)

« إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » أى أنثى من الضأن « وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ »

أى فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقارى إليها، بل أراد التغلب علىّ «فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا» أى : ملكنيها . بمعنى اجعلنى كافلها كما أكفل ما تحت يدى . أو بمعنى اجعلها كفلى أى نصيبي « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أى غلبنى فى المكالمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

[٢٥] (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ)

« قَالَ » أى داود « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ » أى طلب نعجتك التى أنت أحوج إليها ليضمها « إِلَىٰ نِعَاجِهِ » أى مع استغنائه عن هذا الضم «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ» أى الإخوان الأصدقاء المتخالطين فى شئونهم «لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ» أى بغى الأعداء. مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فإنهم لا يبغون « وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ » أى وهم قليل . و (ما) مزيدة للإبهام والتعجيب من قلتهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقلة ، وتنكير (قليل) وزيادة (ما) الإبهامية . والشىء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .

وفى قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين المغبون. ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع. فجهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة فأقر عين المظلوم . وعرف الباغى ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس عن قلب المظلوم البائس، وروّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة ـ خلة البغى

وعدم الإنصاف ـ مع الخلطة والخلة ، ليتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسى روح كل حزين) ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم؟ وكلها حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون المحبة، والصداقة. ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى آدابها علماء الأخلاق، إسهابا نوعوا فيه الأبواب ، ولونوا فيه الفصول . ومع ذلك لاتزال الشكوى عامة. وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . وبالله التوفيق « وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ » أى ابتليناه بتلك الحكومة « فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ » أى ما استغفر منه « وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربا « وَحُسْنَ مَآبٍ » أى مرجعاً حسناً وكرامة ، فى الآخرة .

تنبيهات :

الأول ـ للمفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألمّ به داود عليه السلام ثم غفر له. ومذهب من يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فممن ذهب إلى الأول ابن جرير[1] . فإنه قال : هذا مَثَل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له، فيما قيل، تسع وتسعون امرأة . وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قُتِل نكح، فيما ذكر ، داوُد امرأتَه . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته. هذا ما قاله ابن جرير[1]. ثم أسند قصته مطولة من رواياتٍ عن ابن عباس والسّدّىّ وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد . ومن طريقٍ عن أنس مرفوعا . ويشبه سياق بعضها ما ذكر فى التوراة المتداولة الآن .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة ، وأنها أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا .

(١) انظر الصفحة ١٤٣ وما يتبعها من الجزء الثالث والعشرين .

وفى إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشىّ وهو ضعيف . وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبىّ ﷺ فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم، فمعوّلهم فى ذلك ماذكر فى التوراة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكى عنها . وينبنى على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب فى التبليغ . كما فصّل فى مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : وهو قول الكرامية من المرجئة ، وابن الطّيب الباقلانىّ من الأشعرية ، ومن اتبعه . وهو قول اليهود والنصارى . ثم رد هـذا القول ، رحمه الله ، ردًّا متينا .

وأما المذهب الثانى ، فهو ما جزم به ابن حزم فى (الفِصَل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لايدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافاتٍ ولّدها اليهود . وإنمـا كان ذلك الخصم قوماً من بنى آدم ، بلاشك ، مختصمين فى نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدها على الآخر على نصّ الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرّضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عزوجل، وقوّله مالم يقل ، وزاد فى القرآن ماليس فيـه ، وكذّب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذّب الملائكة . لأن الله تعالى يقول (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ) فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدها تسع وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له أكفلنيها . فاعجبوا . لِمَ يقحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجرّدة . وتالله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشّق امرأة جاره، ثم يعرّض زوجها للقتل عمدا، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر يراه . هذه أفعال السفهاء المتهوّكين الفسّاق المتمردين . لاأفعال

أهل البرّ والتقوى . فكيف برسول الله داود ﷺ الذى أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزّهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً ، ومغفرة الله له ، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة . والاستغفار فعل خير لا ينكر من مَلَكٍ ولا من نبيّ . ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنبيّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى[1] (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُو ذَٰلِكَ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله ﷺ[2] يدعو فى أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجرداً عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعىّ فى (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود .

ثم قال : وأخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه . انتهى .

ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُو ذَٰلِكَ) أى الوقوع فى الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام فى الأحكام . وذكرها للنبيّ ﷺ تدريب له فى الأناة فى جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئاً فى مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله[3] (وَإِنَّ لَهُو عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ) فالقصة لم يجر ذكرها

(١) [٤٠ / غافر / ٧] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ ـ باب ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن . (٣) [٣٨ / صٓ / ٤٠] .

إلا للترقية فى رتب الكمال . وأول دليل على ماذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هى بالتدريب فى الحكم ، لابامرأة ولا غيرها . وأن ماذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فكم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثاً لايصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشىّ عن أنس رضى الله عنه . ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل. فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضاً . انتهى .

وقال القاضى عياض فى (الشفا) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين . ولم ينص الله على شىء من ذلك، ولا ورد فى حديث صحيح. والذى نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وقوله فيه (أَوَّابٌ) فمعنى (فَتَنَّاهُ) أى اختبرناه. و (أَوَّابٌ) قال قتادة: مطيع. وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود: مازاد داود على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك وأكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه. وأنكر عليه شغله بالدنيا. وهذا هو الذى ينبغى أن يعوّل عليه من أمره. وقد قيل خطبها على خطبته، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقندىّ أن ذنبه الذى استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل : بل لما خشيه على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفى ما أضيف فى الأخبار إلى داود من ذلك ـ ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداودىّ : ليس فى قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبىّ محبة قتل مسلم. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه، رجلان فى نتاج غنم على ظاهر الآية . وقيل : بل لما خشى على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

وقال ابن القيم فى أواخر كتابه (الجواب الكافى) فى مباحث العشق: وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى النكاح. كما فى سنن ابن ماجه[1] مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابَّين مثل النكاح. ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله دواءه شرعاً وقدَراً. وبه تداوى نبىّ الله داود ﷺ ولم يرتكب نبىّ الله محرما. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلوّ مرتبته. ولا يليق بنا المزيد على هذا. انتهى.

وهذا منه تسليم ببعض القصة لا بتمامها. وهو من الأقوال فيها.

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكا حكيما، لا نبيا، بدليل ذكره فى أسفار الملوك منها، وما فيها من أنه بعث إليه نبىّ يقال له ناشان، ضرب له المثل المذكور ـ فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التى بين أيديهم فى إثباتٍ أو نفى لا يعول عليه. كيف لا؟ وقد أوتينا بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى. ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين، فلا عبرة بخلاف غيرهم. ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أراده الله واصطفاه. وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام. ومنها أنه لا حاجة فى كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء فى غيره، أو يحاول رده إلى سواه من الكتب، أو هى إليه، لاستغنائه بنفسه. بل وكونه مهيمناً على سائر الكتب، كما أخبر الله تعالى عنه. فليتأمّل ذلك. والله أعلم.

وقد روى أن عمر بن عبد العزيز حُدِّث بنبأ داود على ما يرويه القصاص، وعنده رجل من أهل الحق. فكذَّب المحدِّث به، وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله، فما ينبغى أن يلتمس خلافها. وأَعْظِمْ بأن يقال غير ذلك. وإن كانت على ما ذكرتَ وكفّ الله عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغى إظهارها عليه. فقال عمر: لَسَماعى هذا الكلام، أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس. نقله الزمخشرىّ.

(١) أخرجه ابن ماجه فى: ٩ ـ كتاب النكاح، ١ ـ باب ما جاء فى فضل النكاح، حديث ١٨٤٧ (طبعتنا).

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، داود وغيره ، منزهون من الوقوع فى صغائر الذنوب، مبرءون من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثانى ـ قال ابن الفرَس : فى هذه القصة دليل على جواز القضاء فى المسجد (أى لظاهر المحراب . إلا أنه ليس نصًّا فى محراب المسجد) والتلطف فى ردّ الإنسان عن المكروه صنعه . وأنه لا يؤاخذ بعنفٍ ما أمكن . وجواز المعاريض من القول .

قال الزمخشرىّ : وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض ، دون التصريح ، لكونها أبلغ فى التوبيخ . من قِبَل أن المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به ، كان أوقع فى نفسه، وأشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يبادَه به صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا فى سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكرة ، بأن يعرّض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح . وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية ، فاستسمج حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ، ومقياسا لشأنه . فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة .

الثالث ـ قال ابن مسعود فى قوله تعالى (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى) : أى على دينى . أخرجه ابن أبى حاتم . ففيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسب . واستدل بقوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ) على جواز الشركة . أفاده فى (الإكليل) .

الرابع ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَخَرَّ رَاكِعًا) مَن أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن

السجود . لأنه ، لإفضائه إليه ، جعل كالسبب ، ثم تجوّز به عنه . أو هو استعارة له ، لمشابهته له فى الانحناء والخضوع .

الخامس ـ قال ابن كثير : اختلف الأئمة فى سجدة (ص) هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين : أحدهما أنها ليست من العزائم ، بل هى سجدة شكر . لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، رواه أحمد والبخارىّ[1] وأصحاب السنن . وعنه أنه قال : إن النبىّ ﷺ سجد فى (ص) وقال : سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكراً ، تفرد به النسائىّ[2] . وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قرأها . فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود . فقال ﷺ : إنما هى توبة نبىّ . ولكن رأيتكم تشزنتم ، فنزل وسجد . تفرّد به أبو داود[3] . وإسناده على شرط الصحيح ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ)

« يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ » أى استخلفناك على الملك فى الأرض

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ٣ ـ باب سجدة ص ، حديث ٥٨٩ .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٤٨ ـ باب سجود القرآن ، السجود فى ص .

(٣) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب السجود ، ٥ ـ باب السجود فى ص ، حديث رقم ١٤١٠ .

كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ، ومنه قولهم : خلفاء الله فى أرضه « فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ » أى هوى النفس، من الميل إلى مال أوجاهٍ أوقريب أوصاحب «فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» أى صراطه الموصل إلى الكمالات، كحفظ المملكة والنصر على الأعداء ، والنجاة فى الآخرة ورفع الدرجات فيها « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » أى بسبب نسيانهم، وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى .

تنبيه :

فى الآية بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لايميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء أو سبب يقتضى الميل . واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله . كذا فى (الإكليل) .

وقال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى . ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله . وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . روى ابن أبى حاتم عن أبى زرعة ؛ أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أقول ؟ قال : قل فى أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ! أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة . ثم توعده فى كتابه قال تعالى (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) الآية .

وقال الرازىّ : اعلم أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع . لأن الإنسان الواحد لاتنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة . حتى هذا يحرث وذاك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج والآخر يخيط . وبالجملة ، فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهمّ . وينتظم من أعمال الجميع

مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدنىّ بالطبع . وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات . ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل . فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق . فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه. وذلك يفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج فى الخلق. وذلك يفضى بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك . أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه : فهذا هو المراد من قوله (فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ) يعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق . فكن أنت ذلك . ثم قال (وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ)

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا » أى خلقا باطلا ، لا حكمة فيه . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى[1] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ) وهو أن تقوم الناس بالقسط فى المعتقدات والعبادات والمعاملات « ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا » أى ، ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال . وأخذوا يصدّون عن سبيل الله ويبغون فى الأرض الفساد .

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨و٣٩] .

قال الزمخشرىّ : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها . ومن جحد الحكمة فى خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره . فكان إقراره بكونه خالقاً ، كلا إقرار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ)

« أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » قال المهايمىّ : أى : أنترك البعث بالكلية ، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب . وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له ؟ « أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ » أى مخالفة أمر الله رعاية لمحبته « كَٱلْفُجَّارِ » أى الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بعداوته . أى لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله .

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة ، على أنه لابدّ من معاد وجزاء . فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده . فلابد فى حكمة الحكيم العليم العادل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا . وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ)

« كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ » أى كثير الخير « لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ » قال المهايمىّ : أى لينظروا فى ألفاظه وترتيبها ولوازمها . فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال .

وقال الزمخشرىّ : تدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذى يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعانى الحسنة . لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلَ منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله . حفظوا حروفه وضيعوا حدوده . حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد ، والله ! أسقطه كله . ما يُرى للقرآن عليه أثر فى خُلُق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده . والله ! ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة . لا كثّر الله فى الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ، نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ، نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ)

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ » أى من الخيل ، جمع (صافن) وهو الذى يقوم على طرف سنبك يدٍ أو رِجْل ، « ٱلْجِيَادُ » جمع (جواد) وهو الذى يسرع فى جريه أو بمعنى الحسان جمع (جيّد) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ، حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ)

« فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى » أى آثرته عليه . عدل عنه للمناسبة

اللفظية وقصد التجنيس . وفائدة التضمين إشارة إلى عروضه ، و (ذِكْرِ رَبِّى) إما مضاف لفاعله أو لمفعوله . .

قال الزمخشرىّ : و (الخير) المال كقوله[1] (إِن تَرَكَ خَيْرًا) وقوله[2] (وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والمال : الخيل التى شغلته ، أو سمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها ، قال رسول الله ﷺ[3] : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال فى زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : ماوصف لى رجل فرأيته، إلا كان دون مابلغنى ، إلا زيد الخيل ، وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالاً رضى الله عنه عن قوم يستبقون ، مَن السابق؟ فقال: رسول الله ﷺ . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال: وأنا أردت الخير. « حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ » أى غربت الشمس . متعلق بقوله (أَحْبَبْتُ) وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك. وباء (بِٱلْحِجَابِ) للظرفيّة ، أو الاستعانة أو الملابسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (رُدُّوهَا عَلَىَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ)

« رُدُّوهَا عَلَىَّ » يعنى الصافنات . وهذا من مقول القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر « فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ » أى فجعل يمسح مسحا ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى يقطعها .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل

(١) [٢ / البقرة / ١٨٠] . (٢) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٨ ـ باب حدثنى محمد بن المثنى ، حديث رقم ١٣٦٨ ، عن أنس .

بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبىّ ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاها بعد الغروب . وذلك ثابت فى الصحيحين[1] من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو، والقتال . والخيلُ تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة حتى لاتمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود . كما فعل الصحابة رضى الله عنهم فى فتح (تستر) وهو منقول عن مكحول والأوزاعىّ وغيرهما، والأول أقرب. لأنه قال بعد (رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) قال الحسن البصرى : قال : لا ، والله ! لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ماعليك. ثم أمر بها فعقرت . وكذلك قال قتادة .

وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها . وهذا القول اختاره ابن جرير[2]. قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذى رجح ابن جرير ، فيه نظر . لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا . ولاسيما إذا كان غضبا لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة . ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها . وهو الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوّها شهر ورواحها شهر . فهذا أسرع وخير من الخيل . روى الإمام أحمد[3] عن ابن قتادة وأبى الدهماء،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٤٠٠ ، عن علىّ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٠٢ (طبعتنا) (٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال لنا البدوىّ ، أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله عز وجل . وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيرا منه . انتهى ماذكره ابن كثير .

وقال القاشانىّ : أى طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرقب بعضها وينحر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التى تعبدها بهواها ، وقمعا لسورتها وقواها ، ورفعا للحجاب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإنابة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازىّ إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم . كما أنه كذلك فى دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله (عَن ذِكْرِ رَبِّى) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره . ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور : الأول ـ تشريفا لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدوّ . والثانى ـ أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث ـ أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقا . ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات .

قال : وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . مع أن العقل والنقل يردها . وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلا عن حجة فإن قيل : إن الجمهور فسّروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لناههنا مقامان : المقام الأول ـ أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها . وقد ظهر ، والحمد لله ، أن الأمر كما

ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه . المقام الثانى ـ أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام ذكره الناس . فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام . ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات . ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم . انتهى كلام الرازىّ .

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة . قد جمعت أفانين من القول ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها ، والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبىّ مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها . وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير . من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها . ثم أمر بردها . فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده ، برًّا بها وإكراما لها ، هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره . وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة . وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ولا حجة فى قول أحد دون رسول الله ﷺ ؟ انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : الذى يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم . لأن التنزيل الكريم مصدق الذى بين يديه . إلا أن له الهيمنة عليه . فما وقف فيه على حدّ من أنباء ما بين يديه ، يوقف عنده ولا يتجاوز . وحينئذ، فالقصة المعروفة عندهم هى التى أشير إليها . لكن مع الهيمنة عليها، إذ لا تقبل على علّاتها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ » أى ابتليناه « وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا » أى جسما مجسدا كناية عن صنم ـ على ما رووه ـ وإنما أوثر الجسد عليه ـ إجلالًا لسليمان عليه السلام، وإشارة

إلى أن قصته ـ إن صحت ـ كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى « ثُمَّ أَنَابَ » أى إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ)

« قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ » أى غيرى ، لفخامته وعظمته ، هبة فضل وإيثار امتنان « إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ)

« فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ » أى فذللناها لطاعته إجابة لدعوته « تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً » أى لينة سهلة ، مع شدة وقوة ، ولذا وصفت فى الآية الأخرى بـ (عَاصِفَةً) « حَيْثُ أَصَابَ » أى أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ)

« وَٱلشَّيَـٰطِينَ » عطف على الريح « كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ » أى فى قعر البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ)

« وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ » أى مسلسلين فى الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ » أى على من شئت من المقرنين وغيرهم «أَوْ أَمْسِكْ» أى امنع « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى غير محاسب على المنّ والإمساك ، فيكون حالًا من المستكن . أو هو حال من العطاء، أو صلة له، وما بينهما اعتراض. والمعنى: إنه عطاء جمٌّ لا يكاد يمكن حصره. فقد يعبر عن الكثير بـ (لا يعدّ) و (لا يحسب) ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

« وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربى فى الدرجات ، « وَحُسْنَ مَـَٔابٍ » أى مرجع فى الآخرة .

تنبيه :

روى الأثريّون هٰهنا قصصا مطولة ومختصرة ، مؤتلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام. فالظاهر أنهم يكذبون عليه ولهذا كان فى سياقها منكرات. وتقويةُ ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائىّ بإسناد قوىّ ـ لا عبرة له . فليس المقام قاصرا على صحة السند فحسب ، لو كان ذلك فى الصحيحين ، فأنّى بمروىّ غيرهما ؟؟

وذكر الرازىّ أن القصص المروية هناهى لأهل الحشو من تأويلهم. وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى (فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ) أى آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته، كما قال تعالى مصدقا لموسى عليه السلام فى قوله[1] (إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] .

تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ) إذ من الفتنة ما يهدى الله بها من يشاء وقال تعالى[1] (الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ) فهذه الفتنة هى الاختبار حتى يظهر المهتدى من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هى اختباره حتى ظهر فضله فقط . وما عدا هذا فخرافات ولّدها زنادقة اليهود وأشباههم . وأما الجسد الملقى على كرسيّه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . نؤمن بهذا كما هو ، ونقول (صدق الله عز وجل ، كل من عندالله ربنا) ولو جاء نص صحيح فى القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ماهو ، لقلنا به ، فإذا لم يأت بتفسيره ماهو نص ولا خبر صحيح ، فلا يحل لأحد القول بالظن الذى هو أكذب الحديث فى ذلك ، فيكون كاذبا على الله عز وجل ، إلا أننا لانشك البتّة فى بطلان قول من قال إنه كان جنيا تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب . والله تعالى لايهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك ، وكذلك نبعد فى قول من قال إنه كان ولداً له ، أرسله إلى السحاب ليربيه . فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربى ابنه بغير ماطبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشانىّ أن حكاية الجنىّ والخاتم مع سليمان ، هى من موضوعات حكماء اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء فى تمثيلاتهم من حكايات أبسال وسلامان[2] .

ثم أخذ القاشانىّ فى تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبلُ : إن صحت الحكاية فى مطابقتها للواقع ، كان قد ابتلى بمثل ماابتلى به ذوالنون وآدم عليهما السلام ، انتهى والله أعلم .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣] .

(٢) انظر المراد منها فى شرح (الإشارات) لابن سينا فى أول النمط التاسع من مقامات العارفين وأمثالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

« وَٱذْكُرْ » أى فى باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه « عَبْدَنَآ » أى الكامل فى التحقق بالعبودية « أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ » أى دعاه وابتهل إليه قائلا « أَنِّى مَسَّنِىَ » أى أصابنى « ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ » أى مشقة (بضم النون وفتحهما مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما) « وَعَذَابٍ » أى ألم شديد. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

« ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام. أى: فاستجبنا له وقلنا : اركض برجلك . أى اعدُ بها وامش ، فقد برأت وشفيت من مرضك . وقوى جسمك وصح بدنك « هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » أى ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ)

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ » بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم « وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا » أى ترحما منا عليه بهذا الإضعاف والمباركة « وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ » أى وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتكال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ، نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا » أى حزمة صغيرة « فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا » أى فى كل ما ابتليناه به « نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإنابة والابتهال والعبادة .

تنبيهات

الأول ـ كان أيوب عليه السلام نبيا غنيا من أرباب العقار والماشية. وكان أميراً فى قومه. وكانت أملاكه ومنزله فى الجنوب الشرقىّ من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية. وكانت إذ ذاك خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة. وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثانى ـ يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصا إسرائيلية فى ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله . وهو ماأشار له التنزيل الكريم؛ لأنه المتيقن . وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله . وأنه صبر على ذلك صبرا صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته . وأنه جوزى بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم نسب المسّ إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضى من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه . وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسّه الله به من النصب والعذاب ـ نسبه إليه . وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم مانزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجميل . انتهى .

الرابع ـ دلّ قوله تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً) الآية ، على تقدم يمينٍ منه عليه السلام . وقد رووا هنا آثارا فى المحلوف عليه ، لم يصح منها شيء . فالله أعلم به ولا ضرورة لبيانه . إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهى الدلالة إلى المخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج . ونحن نورد هنا أمثل ما كتب فى الآية ، إيقافا للقارئ عليه ، قال السيوطىّ فى (الإكليل) : أخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثا فيضربها به . فأخذ شماريخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهى لهذه الأمة لمن حلف على مثل ماحلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضا عن عطاء قال : هى للناس عامة . وعن مجاهد قال : كانت لأيوب خاصة قال الكيا الهراسىّ : ذهب الشافعى وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ فى يمينه . وخالف مالك ورآه خاصا بأيوب .

قال : وفى الآية دليل على أن للزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثنى . انتهى .

واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال . إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث . واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ؛ أن رجلا قال له : إنى أردت أن لا أكسى امرأتى ذراعا حتى تقف بعرفة . فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة . فقال : إنما عنيت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عِبَرٌ . انتهى كلام (الإكليل) .

وقد رد الإمام ابن القيّم فى كتابه (إغاثة اللهفان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة . وعبارته : وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ) فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول : إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها

ضربة واحدة لم يبرّ فى يمينه، هذا قول أصحاب أبى حنيفة ومالك وأصحاب أحمد. وقال الشافعىّ: إن علم أنها مسته كلها ، برّ فى يمينه. وإن علم أنها لم تمسه، لم يبر. وإن شك لم يحنث .ولو كان هذا موجبا لبرّ الحالف ، لسقط عن الزانى والقاذف والشارب بعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة . وهـذا إنما يجرى فى المرض كما قال الإمام أحمد ، فى المريض عليه الحدّ ، ويضرب بعثكال يسقط عنه الحد . واحتج بما رواه عن أبى أمامة بن سهل ، عن سعيد بن سعد بن عبادة[1] قال: كان بين أبنائنا إنسان مخدج ضعيف ، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمةٍ من إماء الدار يخبث بها . وكان مسلما . فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ . فقال : اضربوه حده ، قالوا : يارسول الله ! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلنه . فقال : فخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة ، وخلوا سبيله .

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق . فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه ، تلتمس له الدواء بما تقدر عليه ، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال ، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك ، فقال : إنه الشيطان . ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة فى شأنه ، ولم يكن فى شرعهم كفارة . فإنه لو كان فى شرعهم كفارة، لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها . فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود . وقد ثبت أن الحدود إذا كان معذوراً خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة . وامرأة أيوب كانت معذورة ، لم تعلم أن الذى خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان. فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر فى يمينه والرفق بامرأته المحسنة المعذورة ، التى لا تستحق العقوبة . فظهر موافقة نص القرآن فى قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة، فى شأن الضعيف الذى زنى . فلا يتعدى بهما عن محلهما .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٢٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

فإن قيل : فقولوا هـذا فى نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أَمَتَهُ مائة ، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما، إنه يبرّ بجمع ذلك فى ضربها بمائة شمراخ . قيل: قد جعل الله له مخرجا بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر يمينه، ويقضى الله بالبر فى يمينه هٰهنا، ولا يحل له أن يبرّ فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة . ولا يحل له أن يضربها لا مفرقا ولا مجموعا .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجبا كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل: إما أن يكون العذر مرجوّ الزوال كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله. ثم يحدّ الحد الواجب . كما روى مسلم[1] فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه ، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت. فأمرنى أن أجلدها . فأتيتها فإذا هى حديثة عهد بنفاس . فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنت . اتركها حتى تماثل . انتهى كلام ابن القيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ)

« وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ » أى ذوى القوة فى العبادة والأفكار فى معرفة الله تعالى . قال القاشانىّ : أى العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدى، والثانى إلى البصر والنظر، وهم أرباب الكمالات العملية والنظرية.

قال الشهاب : (الأيدى) مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . و (الأبصار) جمع بصر بمعنى بصيرة . وهو مجاز أيضا ، لكنه مشهور فيه . وإذا أريد بـ (الأيدى) الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب . و (الأبصار) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضا . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لا جارحة له ولا بصر . انتهى .

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ)

« إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم » أى صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا . وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية « بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ » أى الباقيـــة والمقر الأصلىّ ، أى استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرفين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا .

لطيفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : (بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ) بالإضافة . وفيها أوجه : أحدها ـ أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان . لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كما فى قوله[1] (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) لأن الشهاب يكون قبسا وغيره . الثانى ـ أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدرا مضافا لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أى بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا . وقد جاء المصدر على (فاعلة) كالعاقبة . أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار .

وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة . وفيها أوجـــه : أحدها ـ أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون (ذكرى) منصوبا به ، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون (ذكرى) مرفوعا به ، والمصدر يعمل منوّنا كما يعمل مضافا . أو يكون (خالصة) اسم فاعل على بابه . و (ذكرى) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار (أعنى) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و (الدار) يجوز أن يكون مفعولا به بـ (ذكرى) وأن يكون ظرفا إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض . و (خالصة) إن كانت صفة ، فهى صفة لمحذوف . أى بسبب خصلة خالصة . انتهى .

(١) [٢٧ / النمل / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ)

[٤٨] (وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ)

« وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ » أى المختارين من أبناء جنسهم لقربنا « ٱلْأَخْيَارِ » أى المنزهين عن شوائب الشرور . على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذى هو أفعل تفضيل . أو هو جمع (خيّر) المشدد أو المخفف منه « وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ ٱلْأَخْيَارِ » أى بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح . و (اليسع) خليفة إلياس وكان خادمه . ويقال له بالعبرانية (اليشاع) كما يسمى إلياس فيها (إيليا) ، وفى التوراة نبأ طويل عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه . وتقدم علم أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فى سورة الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (هَـٰذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

[٥٠] (جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ)

« هَـٰذَا ذِكْرٌ » أى شرف لهم . و (الذكر) يتجوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس ، فتجوّز به عنه بعلاقة اللزوم. فيكون المعنى : أى فى ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزمخشرىّ أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن . أى فالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر .

قال الزمخشرىّ : لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه ، وهو باب من أبواب التنزيل ، وتوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، قال (هَـٰذَا ذِكْرٌ)

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ » أى إقامة وخلود « مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَابُ » أى متى جاءوها يرونها فى انتظارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)

« مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا » أى على الأرائك « يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ » أى مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

« وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى لا ينظرن إلى غير أزواجهن . أو يمنعن طرف الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع (أحور) والثوب المقصور يشبه بالحوارىّ فى بياضه ونصاعته « أَتْرَابٌ » أى متساوية فى السن والرتب ، لا عجوز بينهن . جمع (ترب) بكسر فسكون . وهو من يولد معه فى وقت واحد. كأنهما وقعا على التراب فى زمان واحـــد . فـ (ترب) فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وكمثل بمعنى ، مماثل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ)

« هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ » أى لوقت جزائه . واللام تعليلية . فإن ماوعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة . وهى تظهر بالحساب وتقع بعده . فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه . فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جعلت اللام بمعنى (بعـــد) كما فى (كتب لخمس) سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ)

« إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ » أى انقطاع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (هَـٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ)

[٥٦] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ)

« هَـٰذَا » أى باب فى وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر . أو الأمر هذا . فهو خبر لمحذوف . أو مفعول لمحذوف « وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » أى الفراش . مستعار من فراش النائم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

« هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » وهو ما يغسق من صديد أهل النار . أى يسيل . وجملة (فَلْيَذُوقُوهُ) معترضة بين المبتدأ وخبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ)

« وَءَاخَرُ » أى ومذوق ، أو عذاب آخر « « مِن شَكْلِهِۦٓ » أى مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والهوان « أَزْوَٰجٌ » أى أجناس وأصناف . ثم بيّن ما يقال للرؤساء الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)

« هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ » أى هـذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهكم ، أهل طبائع السوء والرذائل المختلفة ، مقتحم معكم فى مضايق المذلة ومداخل الهوان . والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها . وقوله « لَا مَرْحَبًا بِهِمْ » دعاء من الرؤساء على أتباعهم . أوصفة لـ(فوج) . أو حال. أى مقولا فيهم (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) أى ما أتوا ربهم رحبا وسعة، لشدة عذابهم وكونهم فى الضيق والضنك، واستيحاش بعضهم من بعض، لقبح المناظر وسوء المخابر « إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ » أى داخلوها بأعمالهم مثلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ)

« قَالُوا » أى الأتباع للرؤساء « بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » أى بل أنتم أحق بما قلتم، لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم « أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا » أى قدمتم العذاب بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشانى : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال. أى لأن الوضع لا يختص بالحقيقة. إلا أن الأظهر الأول. ويؤيده قوله تعالى بعدُ (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) « فَبِئْسَ الْقَرَارُ » أى المستقر جهنم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦١] (قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ)

«قَالُوا » أى الأتباع أيضا «رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ» كقوله[1] تعالى (رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ)

« وَقَالُواْ » أى الطاغون أو الأتباع « مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ » يعنون فقراء المسلمين الذى يَسْتَرذلونهم ويسخرون بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ)

« أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا » قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ (رجالا) . وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم . وقوله تعالى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى مالت عنهم كبرا ، وتنحّت عنهم أنفةً . والمعنى أىّ الفعلين فعلنا بهم ، السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم ، تحسرا وندامة على مافعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب ، وقيل (أم) بمعنى (بل) أى بل زاغت عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا فى النار . كأنهم يسلّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا فى جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل[1] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُواْ نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ) إلى قوله[2] (ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ) الآية . وقيل : (أم) بمعنى (بل) أيضا ، أى بل زاغت عنهم أبصارنا لكونهم فى دار أخرى وهى دار النعيم . وقرئ (سُخْرِيًّا) بضم السين وكسرها .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ)

« إِنَّ ذَٰلِكَ » أى الذى حكى عنهم « لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ » أى لواقع وثابت . و (تَخَاصُمُ) بدل من (حَقٌّ) أو خبر لمحذوف . وقرئ بالنصب على البدل من (ذَٰلِكَ) قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك. ولأن قول الرؤساء (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) وقول أتباعهم (بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ) من باب الخصومة . فسمى التقاول كله تخاصما ، لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الناصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ) من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى (بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ) من قول الأتباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثانى من كلام الأتباع . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ » أى رسول مخوّف « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ » أى بلا ولد ولا شريك « ٱلْقَهَّارُ » أى الغالب على خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ)

« رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » أى من الخلق والعجائب « ٱلْعَزِيزُ » أى الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة « ٱلْغَفَّارُ » أى لمن تاب وأناب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الذى أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به « نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

« أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » لتمادى غفلتكم . فإن العاقل لا يعرض عن مثله . كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة . أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع . وأما على بعثته ﷺ به ، فقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى فإن إخباره عن محاورة الملائكة وما جرى بينهم ، على ما ورد فى الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحى .

قال القاشانىّ : وفرق بين اختصام الملإ الأعلى واختصام أهل النار بقوله فى تخاصم أهل النار (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ) وفى اختصام الملإ الأعلى (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) لأن ذلك حقيقىّ لا ينتهى إلى الوفاق أبداً . وهذا عارضىّ نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذى هو فوق كمالاتهم . وانتهى إلى الوفاق عند قولهم[1] (سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) وقوله تعالى[2] (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) على ما ذكر فى البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٣] .

وبالجملة، فالاختصام المذكور فى الآية، هو المشار إليه فى قوله تعالى[١] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) قال الرازىّ: وهو أحسن ما قيل فيه.

ثم قال: ولو قيل: كيف جازت مخاصمة الملائكة معه تعالى؟ قلنا: لاشك أنه جرى هناك سؤال وجواب. وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة. والمشابهة علة لجواز المجاز. فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه. انتهى.

وملخصه: أن (يَخْتَصِمُونَ) استعارة تبعية لـ (يتقاولون). وقيل: معنى الآية نفى علم الغيب عنه ﷺ وردّ اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث فى الملأ الأعلى من التخاصم، كقوله تعالى[٢] (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ) وقوله[٣] (قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ولذا قال بعد:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٠] (إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

«إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» وقُرِئَ (إِنَّمَا) بالكسر على الحكاية.

تنبيهات:

الأول ـ قال الرازىّ: واعلم أن قوله (أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ترغيب فى النظر والاستدلال، ومنع من التقليد. لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق، يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل، وقع فى أعظم أبواب الشقاوة. فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية. وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام، وأن لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة.

الثانى ـ قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصام بالتقاول فى شأن آدم عليه السلام

(١) [٢ / البقرة / ٣٠]. (٢) [٦ / الأنعام / ٥٠]. (٣) [٦٧ / الملك / ٢٦].

مع الملائكة . وقيل : مخاصمتهم مناظرتهم بينهم فى استنباط العلم . كما تجرى المناظرة بين أهل العلم فى الأرض . حكاه الكرمانىّ فى (عجائبه) .

وذهب ابن كثير إلى أنه عنى به ما كان فى شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد[1] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) تفسير له . ولم أره مأثورا عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم ، من أنه فى شأن آدم والملائكة . وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحى . بتقدير (ما كان لى من علم لولا الوحى) ولا تنس القول الآخر . والنظم الكريم يصدق على الكل بلا تناف . والله أعلم.

وقد جاء ذكر تخاصم الملإ الأعلى فى حديث أخرجه الإمام أحمد[2] عن معاذ رضى الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح . حتى كدنا أن نتراءى قرن الشمس . فخرج ﷺ سريعا . فثوّب بالصلاة . فصلى وتجوز فى صلاته . فلما سلّم قال ﷺ : كما أنتم . ثم أقبل إلينا فقال : إنى قمت من الليل فصليت ما قدّر لى . فنعست فى صلاتى حتى استيقظت . فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى ، يارب ! أعادها ثلاثا . فرأيته وضع كفه بين كتفىّ حتى وجدت برد أنامله بين صدرى . فتجلى لى كل شىء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : فى الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس فى المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفرلى وترحمنى . وإذا أردت

---

(١) [٢ البقرة / ٣٠] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

فتنةً بقوم، فتوفنى غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها وتعلموها .

قال ابن كثير : هذا حديث المنام المشهور . ومن جعله يقظة فقد غلط . وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذىّ[1] من حديث جهضم بن عبدالله اليمامىّ به ، وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصام المذكور فى القرآن . فإن هـذا قد فسّر . وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ)

[٧٢] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ » أى فخرّوا له ساجدين تعظيما وتكريما ، إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه . (فإذا) بدل من (إذ) الأولى مفصل لما أجمل قبلها من الاختصام ، وهذا ما رآه الزمخشرىّ وتابعه ابن كثير . وقدّر أبو البقاء (اذكر) وهو الأظهر عندى ، ويعضده القول الثانى فى الآية المتقدمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٧٤] (إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ » أى تعظم

(١) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ٤ ـ حدثنا محمد بن بشار .

« وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ » أى باستكباره أمرَ الله تعالى ، واستكباره عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ)

« قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » أى بنفسى من غير توسط ، كأب وأم «أَسْتَكْبَرْتَ» أى : أعرض لك التكبر والاستنكاف «أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ» أى عليه زائداً فى المرتبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ)

« قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ » يعنى أن الروح الحيوانىّ النارىّ أشرف من المادة الكثيفة البدنية . وغاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلهية ، واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى اللهَ تعالى فى السجود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

« قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا » أى من الجنة أو السماء « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من الرحمة ومحل الكرامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ)

« وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ » قال القاشانىّ : الرجيم واللعين مَنْ بَعُدَ عن

الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانغماس فى الغواشى الطبيعية ، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية . ولهذا وقّت اللعن بيوم الدين . وحدد نهايته به ، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البدن ومواده . وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٨٠] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ)

[٨١] (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ)

[٨٢] (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٣] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ)

« قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ » وهو القيامة الكبرى « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ » وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصفّى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ)

« قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ » جملة معترضة ، للتأكيد ، أى ولا أقول إلا الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٦] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ)

« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » أى تبعك فى التعزز والاستكبار والإباء عن الحق والمحاجة فى الباطل « قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على القرآن أو الوحى . قال القاشانىّ : أى لا غرض لى فى ذلك . فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلولة بالغرض « وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ » قال الزمخشرىّ : أى المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعيا ما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة وأدّعى القرآن .

تنبيه :

فى الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان[1] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ[2] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ)

[٨٨] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ٣ ـ باب وما أنا من المتكلفين ، حديث ٥٧٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ و ٤٠ (طبعتنا).

(٢) [٣٨ / صٓ / ٨٦] .

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أى عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله[1] (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ) وقوله سبحانه[2] (وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ) « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ » أى عند ظهور الإسلام وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهـذا من أجلّ معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التى ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين . فلم يمض ردح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوّة، وخوفهم أمناً، وكمونهم ظهورا وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيّه الكريم ، وحقت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] . (٢) [١١ / هود / ١٧] .